تاريخ العلم عند باشلار من منظور التحليل النفسي

إعداد الباحثة

سالي عبد الحفيظ محمد عبد الحفيظ

باحثة دكتوراه بقسم الفلسفة_كلية الآداب _جامعة المنيا

Sa١٧٢@fayoum.edu.eg

اشراف

أ.د/ السيد بهاء جلال درويش

أستاذ الفلسفة بجامعة المنيا

المستخلص

إن معظم مؤلفات باشلار تحتوي علي عناصر التحليل النفسي وذلك لأن التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية يعد من اساسيات الابستمولوجيا عند باشلار، فنجد أن منطلقات التحليل النفسي لدي باشلار متأثرة بمدرسة التحليل النفسي الفرويدي متمثلا في زعيمي التحليل النفسي (فرويد و يونج)، فقد وظف باشلار بعض مفاهيمهما في تنظيم وإعادة بناء الفكر إنطلاقا من البنية النفسية، إضافة إلي الدور البارز لمفهومي اللبيدو والنار في بناء المشروع النفسي الباشلاري، وكذلك الإشارة لعلاقة التحليل النفسي بالمعرفة الموضوعية وذلك لأن التأسيس للعرفة الموضوعية ينطلق من البنية النفسية. وبناءاً علي هذا قسمت الباحثة هذا البحث إلي ثلاثة أقسام، القسم الأول : منطلقات التحليل النفسي ويحتوي علي (التحليل النفسي عند فرويد، وإرهاصات التحليل النفسي)، و القسم الثاني: المعرفة الموضوعية العلمية ويحتوي علي (التحليل النفسي للنار، و اللبيدو مصدر المعرفة الموضوعية)، أما القسم الثالث: التحليل النفسي للعقل ويحتوي علي (التحليل النفسي والموضوعية العلمية، والعقلانية المعلِمة والعقلانية المعلَّمة).

الكلمات المفتاحية: تاريخ العلم، باشلار، التحليل النفسي.

Abstract

The history of science at Bachelard from the perspective of psychological analysis

Most of Bachelard's literature contains elements of psychoanalysis, because psychoanalysis of objective knowledge is one of the basics of epistemology for Bachelard, so we find that the bases of psychoanalysis I have for Bachelard are influenced by the school of Freudian psychoanalysis represented by the leaders of psychoanalysis (Freud and Young). Bacheler employed some of their concepts In organizing and reconstructing thought from the psychological structure, in addition to the prominent role of the concepts of libido and fire in the construction of the psycho-cultural project, as well as the reference to the relationship of psychological analysis with objective knowledge, because the establishment of objective knowledge stems from the psychological structure. Based on this, the researcher divided this research into three sections, the first section: the starting points of psychological analysis and contains (psychological analysis of Freud, and the implications of psychological analysis), and the second section: scientific objective knowledge and contains (psychological analysis of fire, and libido source of objective knowledge) The third section: Psychoanalysis of Reason contains (Psychoanalytical, Scientific Objectivity, Rationalized, and Rationalized).

KeyWords: History of science, Bachelard, psychoanalysis

أولا : منطلقات التحليل النفسي:

١. التحليل النفسي عند فرويد

ارتبط التحليل النفسي بالطبيب النمساوي "سيجموند فرويد" (*) حيث اهتم بتحديد ميكانيزمات الحياة النفسية التي لا نشعر بها وذلك انطلاقا من نظرية العقل الباطن التي تفترض أن الحياة العقلية للإنسان تنقسم إلى قسمين : " وهما العقل الظاهر أو الشعور والعقل الباطن أو اللاشعور" (١) . بهذا التقسيم تظهر الحياة النفسية بمظهر واضح في أفعالنا وتصرفاتنا كالفرح ، البكاء ، الغضب ... إلخ ، وخلف هذه الحالات يختبئ المظهر الغامض.

يمثل اللاشعور الواقع النفسي الحقيقي الذي تدل عليه عمليات الكبت والتي لا يستطيع الفرد أن يفصح عنها بسبب عوامل دينية ، أخلاقية أو اجتماعية والتي عادة تسبب المرض النفسي ، فالإنسان بحكم كونه كائن اجتماعي ، يملي هذا المجتمع قوانين تتعارض مع رغباته وحين لا يمكن أن يحققها واقعيا تتخذ طابعا لا شعوريا وتأخذ شكل عوارض مرضية كزلات اللسان والأحلام .

وينطلق فرويد من الاضطرابات النفسية حيث يقول : "لا مناص لنا من الافتراض بأنكم تعرفون أن التحليل النفسي طريقة في المعالجة الطبية للأشخاص

(*) سيغموند فرويد : ولد في أسرة تنتمي إلى الجالية اليهودية في بلدة بريبور ١٨٥٦- ١٩٣٩، بمنطقة مورافيا التابعة آنذاك للإمبراطورية النمساوية، والتي هي الآن جزء من جمهورية التشيك، هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ومفكر حر وهو مؤسس علم التحليل النفسي و الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث، اشتهر فرويد بنظريات العقل اللاواعي، وآلية الدفاع عن القمع وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية عن طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي.

(١) محمد فتحي : موسوعة محيط العلوم ، (د- ط) ، دار المعارف ، مصر،١٩١٩، ص١٣.

المصابين بأمراض عصبية" [١] ، من أجل وضع نظرية متكاملة كقانون يعوض عمليات التجريب ويجمع كل مراحل الوصف، وبذلك أصبح لفظ التحليل النفسي ذاته لفظا مبهما فبعد أن كان في الأصل اسما لوسيلة علاجية خاصة أضحى الآن فضل عن ذلك اسما لعلم العمليات النفسية[٢].

فقد قسم فرويد الحياة النفسية إلي قسمين الشعور و اللاشعور:

أ- الشعور :

هو المعرفة المباشرة للعالم الخارجي عن طريق الحدس وقدرة النفس على مطابقة المعطيات الخارجية، فمنذ القدم ارتبط مفهوم الشعور بمفهوم العقل فمثلا في كوجيتو ديكارت يقول " أنا أفكر إذن أنا موجود " [٣] ، وبالتالي فإن الشعور هو بمثابة نافذة على العالم الخارجي وعندما ربط ديكارت التفكير العقلي بالوجود فإنه بذلك قد جعل الشعور أساسا للوجود وليس عمليات عقلية للاتصال به فقط .

فالشعور عند فرويد له بعداً آخر فيقول " الشعور بحد ذاته هو مصدر انفعالات وليس مصدر انفعالاته وليس مصدر معرفة ، فالعقل هو ملكة المعرفة الوحيدة " [٤] و بهذا يعرف فرويد الشعور على أنه سطح الجهاز العقلي ، فالحالات النفسية تحتوي علي جزءا كبيرا باطنا لا يمكن معرفته وفوقه يتمركز الشعور ،وبحكم

---

(١) سيغموند فرويد : مدخل الي التحليل النفسي ، ترجمة جورج طرابيشي ، ط٣ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٩٥، ص٨.

(٢) سيغموند فرويد : حياتي والتحليل النفسي ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٣، ص٨١.

(٣) جنفياف روديس لويس : ديكارت والعقلانية ، ترجمة عبده الحلو ، ط٤ ، دار منشورات عويدات ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ص٣٧.

(٤) اندريه لالاند : الموسوعة الفلسفية ، ترجمة أحمد خليل ، ط٢ ، دار منشورات عويدات ، بيروت ، (د-ت) ، ص٢٨٦.

أن الإنسان لا يمكنه أن يشعر بكل حالات الكون فإنه يختار ما يشعر به والأنسب له وما يجنبه الألم .

أما الشعور كحالة نفسية يتميز بالتداخل مع حالات نفسية أخرى كالوعي ، الإحساس ، المسئولية ، وحتى إن ظهر أنها حالات مرتبطة فيما بينها إلا أنه لا يمكن الفصل بينهما ، فالشعور غير الإحساس رغم أن الإحساس هو صورة الشعور عندما يلاقي العالم الخارجي والوعي هو أعلى درجة يتطبع بها الشعور وبهذا يصبح صورة من صور الإدراك، فيقول فرويد : " إن ظاهرة الوعي أو الشعور ترجع في الأصل إلى الإدراك " [١].

ونجد أن الشعور عند "يونج" [*] غير متصل والتعبير المستعمل متصل لا يدل إلا على الذكريات ،ومن الوظائف الأساسية للنفس الإحساس وهي وظيفة غير عقلانية لأنه لا يقبل أية برهنة، ثم التفكير وهو وظيفة عقلية، يليه الحدس يقوم بإدراك تلقائي لمجموعة من الإمكانات الواسعة فهو وظيفة لا عقلانية. أما العاطفة فيعتبرها يونغ وظيفة نفسية عقلية تتحكم فيها الموضوعات الذاتية [٢].

([١]) سيغموند فرويد : موسي والتوحيد ، ترجمة جورج طرابيشي ، ط٢ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٩٤ ، ص١٦٤.

([*]) يونج : ولد كارل يونج في بلدة كيسول من مقاطعة ثورغاو بسويسرا ١٨٧٥-١٩٦١ ، هو عالم نفس سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي ، كارل يونغ من أوائل طلاب فرويد أسس مدرسة اسمها علم النفس التحليلي كما يطلق عليها أحيانا علم النفس اليونجي نسبه ليونج ، وقد استخدم مصطلح اللبيدو ولم يقصد بها فقط الطاقة الجنسية بل طاقة الدوافع الكلية النفسية. بناء على نظريته تألف اللاشعور من قسمين: اللاشعور الفردي نتجة لخبرة الفرد الكلية والكبت، واللاشعور الجمعي وهو مخزن لخبرة البشر العرقي.

([٢]) عثمان عي : بنية المعرفة العلمية، ط١، الجزائر، ٢٠٠٨، ص١٤٨.

ب- اللاشعور :

مفهوم اللاشعور ليس من صنع فرويد ، بل الإنسان منذ القدم راودته اعتقادات بوجود جانب متخفي في حياته النفسية ، فسقراط وجد منهجا لإدراك الحقائق الكثيرة التي تخفيها النفس ونظرية المثل الأفلاطونية بنيت على أساس التذكر ، غير أن إعطاء اللاشعور بعدا رياديا في الحياة السيكولوجية يعود فيه الفضل إلى فرويد الذي أقام نظرية التحليل النفسي التي تقسم الحياة الإنسانية إلى قسمين : الشعور واللاشعور، فيقول فرويد : " يعتبر اللاشعور ذلك الجانب الذي لا يستطيع أن يصبح شعوريا بطريقة عادية " [١] .

نجد أنه عندما بدأ فرويد أبحاثه في الحياة النفسية ، قسمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية : الشعور – ما قبل الشعور – اللاشعور ، فالشعور كما ذكرنا من قبل هو الذي يربط الإنسان والعالم الخارجي عن طريق الإحساس والإدراك ، أما ما قبل الشعور فهو مجموع الحالات التي بإمكانها أن تصبح شعورية ، فهي الأقرب إلى الشعور منها إلى اللاشعور : " الشعور أقرب جدا إلى ما قبل الشعور منه إلى اللاشعور " [٢].

أما يونج فقد أعطى اللاشعور مدلولا مختلفا عن المدلول الفرويدي ، فقد قسم يونج مكونات النفس إلى: شعور شخصي _ ولا شعور شخصي _ ولا شعور جماعي ، ويعتبِر يونج اللاشعور الجماعي هو أساس الحياة النفسية إذ يحتوي على دوافع غريزية وأفكار بدائية وأنماط نفسية فالغريزة تعبر عن الطرق البدائية في العقل أما النماذج أو الأنماط النفسية فتعبر عن الطرق الأولية ، فقد تصدر عن بعض الناس المتحضرين تصرفات لا شعورية وذلك بسبب العادات المتأصلة فيهم ، فقال يونج : "

([١]) سيغموند فرويد : الأنا والهو ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، ط٣ ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص٢٥.

([٢]) المصدر السابق : ص٢٥.

علم النفس ليس سحرا أسود بل هو علم الوعي ومعطياته وكذلك اللاوعي لكن اللاوعي "اللاشعور" في مرتبة ثانية لأن اللاشعور لا يدرك مباشرة لأنه لا شعور" [١].

وبالتالي فنجد ان الاهتمام الأكبر لدي فرويد كان ذلك الجانب الغامض في الحياة الإنسانية ألا وهو "اللاشعور" ، وانطلاقا من الأبحاث التي قام بها ، أعطى النفس ترتيبا ثلاثيا آخر ، فقد قسم النفس إلي ثلاثة أقسام وهي :

الهو : فالهو أقدم مناطق الجهاز النفسي أو المنظمات النفسية ، ويتضمن كل ماهو موروث ، كل مايظهر عند الميلاد ، كل ماهو مثبت في الجبلة ، لذا فهو يتألف أولا وقبل كل شئ من الميول الغريزية التي تصدر عن التنظيم الجسمي وتجد أول تعبير نفسي عن ذاتها في صورة نجهلها [٢].

فيري فرويد أن الإنسان يولد ومعه رغبات فطرية ، وبتجميعها يتكون الهو الذي يعتبر الأصل في تكوين الشخصية والتي تصطدم عادة مع الأنا والأنا الأعلى لأنه دائم البحث عن تحقيق اللذة دون الخضوع للتقاليد التي تعيقه ، فالهو : " لا يتبع قواعد الأخلاق على الإطلاق " [٣].

الأنا : تحت تأثير العالم الخارجي الواقعي المحيط بنا ، يطرأ علي الهو تطور خاص ، فبدءاً من الطبقة اللحائية الأصلية المزودة بأعضاء قادرة علي تلقي التنبيهات ، قام تنظيم خاص وما لبث ان صار وسيطا بين الهو والخارج ، وهذا الجزء من نفسيتنا يطلق عليه اسم الأنا [٤].

---

(١) عثمان عي : بنية المعرفة العقلية ، مرجع سابق ، ص١٤٨.

(٢) سيغموند فرويد : الموجز في التحليل النفسي ، تقديم محمد عثمان نجاتي ، ترجمة سامي محمود علي ، (د– ط) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، (د–ت) ، ص٢٦.

(٣) سيغموند فرويد : موسي والتوحيد ، مرجع سابق ، ص١١٦.

(٤) سيغموند فرويد : مختصر التحليل النفسي ، ترجمة جورج طرابيشي ، ط٢ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٦، ص٩.

فمن خصائص الأنا أنه يسيطر علي الحركات الإرادية ، وذلك نتيجة للعلاقة السابقة التكوين بين الإدراك الحسي والفعل العضلي ، كما أنه يقوم بمهمة حفظ الذات ، وهو يؤدي هذه المهمة بأن يتعلم معالجة المثيرات الخارجية ، فيدخر خبرات تتعلق بها في الذاكرة ويتفادي المثيرات المفرطة في القوة بالهرب ، ويستقبل المثيرات المعتدلة بالتكيف، وهو يتعلم تعديل العالم الخارجي تعديلا يعود عليه بالنفع [١].

وبالتالي فالأنا دوره يكمن في الوساطة بين الهو والأنا الأعلى ، لذلك عادة يقف حائرا بين تنفيذ رغبات الهو وإطاعة أوامر الأنا الأعلى ، فمهمته هي التوفيق بينهما من أجل تحقيق التوازن في الشخصية الإنسانية ، لكن محاولته الدائمة لإرضاء الأنا الأعلى تدفعه دائما لإحاطة رغبات الهو بالغموض أمام الأنا الأعلى ، لأن الأنا كان جزءا من الهو .

الأنا الأعلي: لكي نفهم ماهو الأنا الأعلي وما هي وظيفته يعطي لنا فرويد مثالا علي ذلك فيقول : " يمكن فهم خصائص العلاقات بين الأنا والأنا الأعلي اذا ارجعناها إلي علاقات الطفل بوالديه . ومن المحقق أن ما يؤثر في شخصية الطفل ليس شخصية الأهل وحدهم ، بل كذلك ، تأثير التقاليد العائلية والعرقية والقومية والوسط الإجتماعي المباشر ، ويتأثر أيضا الأنا الأعلي للطفل في اثناء تطوره بخلاف الأهل وبدائلهم ببعض الأشخاص الذين يمثلون في المجتمع مثلا عليا موقرة"[٢].

وكراسب من رواسب فترة الطفولة الطويلة التي يعيش فيها الإنسان الناشئ معتمدا علي والديه، تتكون في الأنا منظمة خاصة يمتد فيها تأثير الوالدين هذا ويطلق عليها اسم الأنا الأعلي ، وبقدر ماينفصل هذا الأنا الأعلي عن الأنا أو يعارضه ، فهو يكون قوة ثالثة ينبغي علي الأنا أن يعمل لها حساب [٣].

---

(١) سيغموند فرويد : الموجز في التحليل النفسي ، مصدر سابق ، ص٢٧.

(٢) سيغموند فرويد : مختصر التحليل النفسي ، مصدر سابق ، ص١٠.

(٣) سيغموند فرويد : الموجز في التحليل النفسي ، ص٢٧.

إذا فالأنا الأعلي هو الرقيب الذي يعطي أوامر للأنا كي تكبح رغبات الهو التي تتعارض مع متطلباته ومع القواعد والضوابط التي وضعها تمدن الإنسان وتحضره والتي كانت أساس نشأة الأنا الأعلى كقوة نفسية ثالثة فيقول فرويد : " هو سلطة جرى اكتشافها على أيدينا قوامها مراقبة أفعال الأنا ونياته ومحاكمتها وممارسة وظيفة الرقابة " [١].

٢. التحليل النفسي عند باشلار

من خلال الإطلاع ومتابعة مؤلفات باشلار نجد أنها لا تكاد تخلو من عناصر التحليل النفسي والتي أراد باشلار جعلها المهمة الأبستمولوجية الرئيسية للمعرفة الموضوعية كما أنه لا يخفى لكل من سار علي خطي باشلار في الفلسفة تأثره بمدرسة التحليل النفسي ، خاصة الفكرة التي جاء بها كارل يونج.

فكما ذكرنا من قبل أن سيغموند فرويد هو من وضع أساس التحليل النفسي والذي بناه انطلاقا من مفهوم اللاشعور ، تلك المنطقة الغامضة التي تحتوي على الرغبات المكبوتة التي لم يتمكن الشخص من تحقيقها واقعيا وعندما تتسارع للظهور في الشعور ، تظهر بطريقة غامضة كأحلام النوم واليقظة ، و زلات اللسان وبعض الأفعال المموهة ، والتي تتسبب في أمراض نفسية تنشأ من عقد نفسية تعود لمرحلة الطفولة نتيجة صدمات تلقاها المريض في طفولته .

هذه العقد والذكريات يكشف عنها التحليل النفسي عن طريق التداعي الحر للمعاني ، فيقول فرويد: " وكثيرا ما يبدي المريض مقاومة تعيق عمل المحلل النفساني " [٢] و بإستعماله المقاومة يتجنب الإدلاء بذكرياته أو التصعيد عندما يعجز عن

([١]) سيغموند فرويد : قلق في الحضارة ، ترجمة جورج طرابيشي ، ط٢، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص١٠.

([٢]) سيغموند فرويد : الكف والعرض والقلق ، ترجمة محمد عثمان نجاتي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، (د–ط) ، الجزائر ، ١٩٨٥، ص٥٩.

إشباعها واقعيا فيلجأ إلى طرق بديلة وهو ما يعرف بالتحول وهذا بدافع وإلحاح الغريزة ، خاصة الغريزة الجنسية وما يطلق عليه فرويد اللبيدو (*).

فإذا كان فرويد عرف الإنسان علي ضوء البنية النفسية المأخوذة من ملاحظات الشخصيات العصابية (*) ، ويونج طبق هذه النزعة أيضا ولكن بصبغة نفسية واجتماعية ، فإن باشلار أراد ممارسة التحليل النفسي للإنسان السوي وذلك علي ضوء معطيات جديدة مستنبطة من علاقات الإنسان بالثقافة العلمية (١).

فلقد استعمل باشلار التحليل النفسي بطريقته الخاصة ، فالتحليل النفسي عند باشلار اختلط كثيرا بعناصر الفيمونولوجيا مع فارق رؤية باشلار الإبستمولوجية ، إذ لا نكتشف بسهولة المبادئ العامة عند باشلار لعقلانية جديدة في التحليل النفسي قائمة علي أسس ومبادئ واضحة ومنظمة (٢) .

فلم يكن اهتمام باشلار بعلم النفس كمنظومة بل اقتصر اهتمامه على علم النفس المرضي لأنه يكتشف الآخر في الأنا ، لأن مصدر إلهامه في التحليل النفسي كان مفهوم الكبت والذي يعد حالة مرضية تخص الطب النفسي فيقول : " وبرأينا أن الحدس الشرعي الوحيد في علم النفس هو حدس الكبت . لكن هذا المجال غير

(*) اللبيدو : باللاتينية الرغبة أو الشهوة وعند فرويد يدل علي الغريزة الجنسية.

(*) العصاب : هو نوع من انواع الخوف الذي يؤدي إلى اضطراب في الشخصية وفي الأتزان النفسي، وهو اضطراب عصبي وظيفي غير مصحوب بتغير بنيوي في الجهاز العصبي، ترافقه في كثير من الأحيان أعراض هستيريا, وحصر نفسي, وهواجس مختلفة مريض العصاب لا يعاني من الهلوسة او من فقدان الصلة مع الواقع، وسلوك الأشخاص الذين يعانون من العصاب هو سلوك عادي وطبيعي، فالعصاب اضطراب من تضافر عدة عوامل علي رأسها صراعات لاشعورية تبدو في صورة أعراض جسمية ونفسية ومنها القلق والوساوس والأفكار المتسلطة والمخاوف الشاذة واضطرابات جسمية وحركية وحسية متعددة تعوق الفرد عن ممارسة حياته السوية في المجتمع الذي يعيش فيه وقد يدفع الفرد إلى القتل أو الانتحار.

(١) عثمان عي : بنية المعرفة العلمية ، مرجع سابق ، ص١٤٩.

(٢) المرجع نفسه.

مناسب للبحث في علم النفس هذا القائم علي الإستجابة في جوهره" [١] الذي بسببه تظهر العوائق الأبستيمولوجية.

ونجد أن التحليل النفسي أيضا طور بشكل خاص مفاهيم قريبة من حدس الكبت الذي يتوافق مع البحث الذي كان يجريه باشلار حول العوائق غير الطبيعية المتخفية نتيجة كبت نفسي ، ويتم ذلك عن طريق ملاحظات طبيعية تكشف عن تلك العوائق: " إن المفاهيم الفرويدية الخاصة بالكبت والمقاومة والمراقبة والصراع النفسي والأنا العليا هي بالنسبة لباشلار مناسبات للتفكير بالطبيعي من خلال غير الطبيعي"[٢] أي الكبت هو نشاط طبيعي ولا يمكن لأي تفكير طبيعي أن يخلو منه ، بل أي تفكير عقلي صلب يعود بأصله إليه.

ونجد أن لهذا السبب يرفض باشلار الوقوف عند اللاشعور بالطريقة التي قال بها فرويد ، والتي انطلق فيها من اللاشعور ليبحث عن الشعور والذي أطلق عليه باشلار صفة التحليل النفسي المباشر ، فهذه الطريقة حسب باشلار تعود إلى التحليل النفسي التقليدي الذي اهتم بدراسة الأساطير وأهمل دراسة المتغيرات العلمية التي تتطرأ علي الانسان لأن التفسير العلمي للتحليل النفسي عند فرويد لم يكن قادرا على تفسير اكتشافات ما قبل التاريخ لأنه ابتعد في تفسيره عن البعد السيكولوجي.

فالدليل الذي جاء به باشلار لتعويض قصور التحليل النفسي المباشر هو التحليل النفسي غير المباشر الذي يقلب الآية التي بنى عليها فرويد نظريته ، فالتحليل النفسي عند باشلار يقوم على البحث عن اللاشعور من خلال الشعور ، أي الاهتمام بالبحث عن القيم الذاتية في الموضوعية أما فرويد فكان يبحث عن الشعور من خلال اللاشعور : "... من حسنات التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية درس

([١]) غاستون باشلار : تكوين العقل العلمي ، مصدر سابق ، ص٢١.

([٢]) جيل ديديه : باشلار والثقافة العلمية ، ترجمة محمد عرب ، ط١ ،المؤسسة الجامعية للنشر ، بيروت ، ١٩٩٦، ص٤٢.

منطقة أقل عمقا من المنطقة التي تنبسط فيها الغرائز البدائية ، ولأنها متوسطة كان لها فعل المعِين للفكر الواضح والفكر العلمي" [١].

لذلك فإن باشلار يدعو للعودة إلى زمن الشعوب البدائية من أجل فهم سيكولوجية الإنسان البدائي ، ونجد أن هذا هو وجه الاختلاف بين اللاشعور كما فسره فرويد والذي يتقاسم مع الشعور الحياة النفسية للفرد وبين اللاشعور عند باشلار والذي يضعه في موقع بين ما هو شعوري وما هو لا شعوري ، ومن هنا جاءت العقدة أو كما يسميها باشلار العائق الإبستمولوجي ، فيكون له دور إيجابي لأنه يكشف عن المستوى النفسي لكثير من العلوم التي اتسمت بالموضوعية ، وهي أقرب إلى مفهوم كارل يونج الذي يرى أن العقدة هي العواطف والأفكار المبهمة التي تعيق الفكر على إحداث تغييرات من أجل معرفة متطورة.

يضرب باشلار هنا لنا بمثال النار التي كانت تعبر عن صور اجتماعية أخلاقية ودينية نتيجة ارتباطها باللاشعور الجماعي في الفكر البدائي ، ومع هذا فإن اللاشعور الفردي نشأ انطلاقا من تمرد اللاشعور الشخصي على الأوامر والقوانين والمحرمات الاجتماعية فيقول : " كان غزو النار قد تم بدائيا علي أساس جنسي ، فلا عجب أن تظل النار مستجنسة طيلة هذه المدة وعلي هذا النحو من الشدة ... فإن النار البدائية قادرة علي انتاج مثيلتها ، فإن النار وليدة جرثومة معينة وقد تصاب بالعقم ما أن تبلغ سنا معينا مثلها في هذا كمثل كل قوة منجية ، وإذا تركت النار تعيش حياتها الطبيعية ، هرمت وماتت كما يهرم ويموت الحيوان والنبات" [٢].

هذه العقدة المعرفية تتخذ مكانا وسطا بين الشعور واللاشعور ، ليست من طبيعة عصابية ولا تحل عن طريق التنفيس ، وهي أقل فاعلية من عقدة فرويد

---

(١) غاستون باشلار : النار في التحليل النفسي ، ترجمة نهاد خياطة ، ط١ ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٤، ص١٥.

(٢) المصدر السابق : ص٤٣.

وتحليل هذه العقد يساعد ويدفع الفكر على النمو ، فعقدة بروميثيوس تمثل الدوافع النفسية التي تحثنا على العمق في المعرفة سواء بمثدار معلمينا أو أكثر منهم [١].

اعتبر كثير من المتأثرين بالتحليل النفسي الفرويدي، أن عملية التصعيد النفسي للعناصر الجنسية تقود إلى الإبداع الفني والعلمي، وهكذا فسرت حتى الحياة الأخلاقية والروحية على أنها مجرد إعلاء للغرائز الجنسية ودليلهم في ذلك أن رجال الدين يتكلمون بلغة وضعت أصلا للتعبير عن حاجات مادية صرفة، والحاجات الغريزية على وجه الخصوص [٢].

أما باشلار فيعتبر عملية التصعيد طبيعة فكرية ، فإذا كان عند فرويد يقود إلى الإبداع الفني والعلمي ، فهو عند باشلار مهمته تخليص الفكر العلمي من التخيلات اللاعقلانية ، وهو بهذا يعتبر تصعيدا مثاليا ، وهو نتيجة لعملية كبت معرفي شعوري يسعى دائما إلى تصحيح أخطاء المعرفة العلمية إراديا وهذا لا يمكن أن يكون دون تحليل نفسي للثقافة العلمية ، فبدونها يبقى العقل متشبثا بأخطائه ويبقى تحت سيطرة ما يمتلكه من حقائق ذاتية .

وبالتصعيد يمكن الارتقاء بالمعرفة من المحسوس إلى المجرد إلى الأكثر تجريدا من خلال الكشف عن العناصر الذاتية التي تحتويها المعرفة الإنسانية ، عن طريق معرفة موضوعية لما هو ذاتي ، حيث تعترف هذه الذات التي كانت واثقة من معرفتها بأخطائها فيقول باشلار : " قبل التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية كان الخطأ ناشئاً عن نظرة فلسفية ، فكان صاحبه لايقبل التصحيح بل يتشبث بتفسير الخصائص الظاهراتية وفق المنهج الجوهري ، أما بعد التحليل النفسي للمعرفة

([١]) المصدر السابق : ص١١.

([٢]) عثمان عي ، بنية المعرفة العلمية ، مرجع سابق ، ص١٥٠.

الموضوعية ، فقد بات بوسعنا أن نعرف مقدار الحبور العميق الناشئ عن الاعتراف بالأخطاء الموضوعية " [١]

وخلاصة القول أن باشلار يوجه تحليله النفسي لدراسة النظريات العلمية دون الاهتمام بدراسة شخصيات العلماء ، وذلك من خلال وضع مجموعة الأفكار التي تمثل الواقع في نظام معرفي ، لأن العلم هو أولا من إنتاج إنساني جماعي رغم أن من أبدعوه هم أفراد ، وتمثل الأسس النفسية الفردية ، هذه الأسس اللاشعورية هي التي تسبب جمود الفكر العلمي يسميها باشلار بالعوائق الأبستمولوجية ، وهدف التحليل النفسي هو الكشف عنها لتهيئة أرضية جديدة للفكر العلمي للأإبداع .

ثانياً:المعرفة الموضوعية العلمية:

١. التحليل النفسي للنار:

لقد اهتم التحليل النفسي منذ القدم بالأساطير التي وجد فيها مادة دسمة لتفسير اكتشاف النار ، لكنه أهمل بالمقابل التفسيرات العلمية الموضوعية التي تناولت اكتشاف الإنسان البدائي ، وأهم القضايا التي طرحت حولها هي الاحتكاك كعملية تؤدي إلى النار ، أي التأويل الأول كان تأويلا جنسيا الذي بسببه سترتبط مجموعة من المفاهيم ببعضها ، فالنار مجنسة ، ولها خصائص الكائن الحي أي تخضع للدورة البيولوجية التي تحدث لأي كائن حي : ولادة ، شباب ، شيخوخة ، موت ، كما أنها تتميز بخصوبة كبيرة وهي كذلك بذرة تكون سببا في ظواهر كبيرة (العائق الجوهراني) وأوصافها تتعدد (العائق اللفظي) والنار شائعة عند جميع الشعوب (عائق المعرفة العامة).

فمفهوم النار يلعب دوراً كبيرا في مشروع التحليل النفسي عند باشلار : " ان الانسان البدائي قد أنتج النار بواسطة احتكاك قطعتين من الخشب اليابس" [٢] ، فهذا

([١]) غاستون باشلار : النار في التحليل النفسي ، مصدر سابق ، ص٩٢.

([٢]) غاستون باشلار : النار في التحليل النفسي ، مصدر سابق ، ص٢٦.

الإحتكاك عبارة عن خبرة مستجنسة ، ولن يصعب الإقتناع بذلك عند استعراض الوثائق السيكولوجية التي قام بجمعها التحليل النفسي التقليدي ، فمنذ أن تولي التحليل النفسي هذه الصياغة أصبح من السهل تفسير حشد كبير من الأساطير والعادات القديمة ، كما أصبح من الممكن أن تتضح عبارات غريبة امتزجت لا شعوريا بتفسيرات معقلنة [١].

حسب باشلار النار لم تدرس أبدا بشكل موضوعي ، لأن تأثيرها يشمل حتى العقول السليمة ، وبالتالي تقتضي الضرورة إعادة قراءة اعتقاداتنا التاريخية وذلك من خلال التحليل نفسي للنار ، لقد أثرت هذه المعتقدات في كل الإنتاج النظري المتعلق بالنار لأنه العلم المعاصر لم يهتم بها كثيرا ، وحتى كتب الكيمياء لم تخصص للنار إلا القليل من فصولها ، وحتى الأجوبة الخاصة عند العلماء والمثقفين حول ما هية النار غالبا ما تكون تكرارا لأجوبة النظريات الفلسفية القديمة [٢] ، وهذا بسبب أن الحدوس الذاتية ما زالت تطغى على المواقف المعرفية ، والفكر العلمي المعاصر لم يتجاوز بعد التفكير البدائي.

فيقول باشلار: " النار هي الحي الأعلي ، وهي داخلية وخارجية ، إنها حميمية وكونية تعيش في قلبنا كما تعيش في السماء ، ثم تعود لتهبط في قلب المادة ، فإنها حقا الوحيدة التي يمكنها الحصول أيضا بشكل واضح على القيمتين المضادتين : الخير والشر " ، فإن حجم هذه الظاهرة هو الذي يجعل من بعض التفسيرات ذات طابع ديني أكثر منه عقلاني لا يخرج عن نطاق الخيال ، ومن نتائج ذلك أن معرفتنا للنار تستند أكثر إلى المنظومة الاجتماعية وما تأسس من معارف داخل المجتمع بعيدا عن الاستنتاج الطبيعي [٣] .

([١]) المصدر السابق : ص٢٧.

([٢]) المصدر السابق : ص٦.

([٣]) المصدر نفسه، ص١١.

نجد أن هذه المنظومة يضعها باشلار تحت مايسميه ب "عقدة بروميثيوس" حيث تشير إلي أن الموانع الاجتماعية هي التي تتحكم بموقفنا من النار فيقول : " إذا اقتربت يد الطفل من النار فإن والده يضربه على أصابعه بمسطرة ، النار تضرب دون أن تكون في حاجة إلى أن تحرق ، أن تكون هذه النار شعلة أو حرارة ، مصباحا أو موقدا ، فإن انتباه الأب هو نفسه ، النار في الأصل موضوع للمنع العام ، من هنا هذه الخلاصة ، المنع الاجتماعي هو معرفتنا الأولى بالنار ، ما نعرفه أولا عن هذه النار هو أنه لا يجب لمسها" [١].

هكذا نجد أن المفاهيم الأولى للنار مرتبطة بالثقافة التي تحول النار إلى عنصر جنسي بامتياز ، فيرى باشلار أن التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية عليه أن يبدأ بالكشف عن الحدوس المرتبطة بالنار والتي تمثل الاعتقادات البدائية بحكم أنها تمثل أول اكتشاف عظيم للإنسان البدائي ، شكلت قطيعة مع الكيفية المعيشية البدائية ، وفصلته عن الحيوان ، وذلك بخروجه من الأكل النيئ وجعلته صانعا [٢] .

فإن ظاهرة النار تحمل في ذاتها خصائص متعددة ومتناقضة لا يمكن معالجتها إلا في ضوء جدل قائم على ثنائية تحيط بالنار ، تفيض عنها كل القيم الأخرى هي أن النار تحرق وتضيء .

٢. اللبيدو مصدر المعرفة الموضوعية:

يمكن التحليل النفسي للاشعور من تحديد دور الغريزة الجنسية في التفكير وتأثيرها القوي الذي يفوق تأثير الأفكار الحدسية الواضحة ، فتمثل القوة الشهوانية سمة التفكير القبل علمي الذي كان عادة ما يرجع إلى المفاهيم الجنسية لتفسير الظواهر ، ما مثل عائقا أمام تطور الفكر العلمي يضاف إلى جملة العوائق الأبستمولوجية الأخرى والذي من الممكن أن نطلق عليه اسم "عائق اللبيدو" .

([١]) المصدر نفسه، ص١٤.

([٢]) المصدر نفسه، ص٥٤.

كان فرويد أول من استعمل لفظ اللبيدو ليعبر به عن الغريزة الجنسية ذات التأثير الكبير على سلوك الأفراد حيث يرجع إلى هذا الدافع الغريزي جميع الأفعال اللاشعورية ، والكبت القمعي لهذه الشهوة الجنسية يتسبب في أمراض عصابية والتي تكون بمثابة إشباع لا شعوري بطريقة غير مباشرة لهذه الرغبات ، وتعود نشأة هذه الغريزة إلى الطفولة [١] .

فبداية التفكير يعود إلي العامل الجنسي ، عندما يدفع الآباء الطفل للتفكير في الأسئلة التي تحيره ، والتي لا يمكنهم تزويده بما يحتاجه من معلومات نتيجة موانع أخلاقية ، دينية واجتماعية ، هذا الامتناع يدفع بالطفل إلى أن يبحث بمفرده عن هذه المعلومات التي تمثل بالنسبة له سرا فيقول باشلار: " وبما أن الشهوانية سرية ، فإن كل ماهو سري يوقظ الشهوانية ، وعلي الفور يصبح السر محبوبا ، وتظهر الحاجة إلي السر " [٢].

وبسبب ذلك نلاحظ أن السمة الغالبة التي كان يتصف بها الفكر القبل علمي هي التعميمات السريعة من أجل تلبية هذه الحاجات ، هذه التعميمات السيئة كانت تمثل عائقا أمام تطور الفكر العلمي ، فالتفسير الجنسي كان طاغيا على تفسير الكثير من الظواهر وأولها حسب باشلار والذي ينطلق منه التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية هو حدس النار ما يمثله هذه المفهوم لدى إنسان ما قبل التاريخ ومدى تأثيره في الفكر قبل العلمي [٣] فيقول باشلار : " التحليل النفسي الكامل للاوعي

(١) ودورت روبرت : مدارس علم النفس المعاصرة ، ترجمة كمال دسوقي ، (د–ط) ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص٢٣٣.

(٢) غاستون باشلار : تكوين العقل العلمي ، مصدر سابق ، ص١٤٨.

(٣) عثمان عي : بنية المعرفة العلمية ، مرجع سابق ، ص١٥٧.

العلمي يجب عليه الشروع على الأقل بدراسة الشعور المستوحي مباشرة من اللبيدو (الشهوانية) " [١] .

ويعرض باشلار لنا كثيرا من الأمثلة الجنسية علي اللبيدو والشهوانية في كتابيه "النار في التحليل النفسي" و "تكوين العقل العلمي" ليستخلص بأن التفسير الجنسي للظواهر هو بمثابة إشباع غير مباشر لرغبات الإنسان المكبوتة وهنا يلتقي باشلار مع فرويد في نفس التفكير [٢].

وهذا التفسير الجنسي كان يمثل إشباع رغبات مكبوتة بطريقة غير مباشرة لهذا فإن التحليل النفسي يكشف أن هذه التفسيرات تمثل شخصيات أصحابها أكثر ما تمثل الظواهر بحد ذاتها في المعرفة القديمة.

ثالثاً: التحليل النفسي للعقل:

١. التحليل النفسي والموضوعية العلمية

ممارسة التحليل النفسي على المعرفة الموضوعية تمكن من اكتشاف أخطاء المعرفة ، فالتفكير العلمي المعاصر بتجاوزه العوائق الأبستمولوجية ، استطاع تصحيح الكثير من الأخطاء فيقول باشلار : " لا توجد حقيقة بدون خطأ مصحح،أن بسيكولوجية الموقف الموضوعي هي تاريخ أخطائنا الشخصية " [٣] . وهذا لا يأتى إلا بإحداث قطيعة بين المعرفة العلمية والمعرفة العامية والتي تصطدم بمعتقدات الفكر قبل العلمي التي سلم بوضوحها وطور طرق المقاومة والدفاع على هذه المعتقدات التي توهمه امتلاك الحقيقة وتحول دون استفادته من دروس التطور العلمي ، ما يشكل صعوبة للفكر العلمي للقضاء على هذا التشبث بالمعرفة المباشرة والسهلة حتى داخل المعرفة العلمية الموضوعية ويقول باشلار في ذلك : " لابد من التسليم بقطيعة

([١]) غاستون باشلار : تكوين العقل العلمي ، ص١٦٧

([٢]) عثمان عي : بنية المعرفة العلمية ، مرجع سابق ، ص١٥٨.

([٣]) غاستون باشلار : تكوين العقل العلمي ، مصدر سابق ، ص١٩١.

حقيقية بين المعرفة الملموسة والمعرفة العلمية ، فإن النزعات الطبيعية للمعرفة الملموسة، مهما تأثرت بالبراغماتية والواقعية ، لا تحدد إلا منطلقا خاطئا واتجاها باطلا " (١).

فتتأسس المعرفة الموضوعية للفكر العلمي على السلوك الاجتماعي وتنطلق من الشكل في المكتسبات المعرفية الأولى ، في التصورات الذاتية والفضول على تصورات الآخرين ، من هنا ينتقل الفكر من الموضوع المباشر إلى الموضوع غير المباشر " ان كل مقياس واضح هو مقياس مهيأ ، وان نسق الوضوح المتزايد هو نسق بناء أدوات متصاعد ، اذن نسق تكون اجتماعي متصاعد" (٢) .

هذه الموضوعية تفرض على الفكر الاعتراف بأخطائه ، وهذا من خلال القضاء على كل نزعة وثوقية ، ولا يمكن للتحليل النفسي أن يساعد على تطهير الفكر من هذه الأخطاء إلا إذا مورس جماعيا فيقول باشلار: " أن جدل الواقع والعام يتفاعل ويؤثر في الموضوعات النفسانية لتحليل البخل والصلف ،لكن لا يكفي تحرير العقل من هذين النيرين الخطيرين ، فلا مناص من تحديده بواسطة تجريدات أكثر دقة وذلك بإستبعاد أخطاء آسرة أكثر فأكثر ، ولأجل هذه البيداغوجية النقية قد يلزم جمعيات علمية معقدة ومجمعات علمية تضاعف المجهود المنطقي بمجهود نفساني"(٣).

يساعد التحليل النفسي على كشف سادية (*) المربي الذي يتلذذ بامتلاكه المعرفة مقارنة بالآخرين ومازوخية (*) المثقف الذي يفرض البرهان على كل شيء

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه ، ص١٩٣.

(٣) المصدر السابق : ص١٩٤.

(*) السادية : مصطلح يستعمل لوصف اللذة الجنسية التي يتم الوصول إليها عن طريق إلحاق أذى جسدي أو معاناة أو تعذيب من قبل طرف على طرف آخر مرتبطين بعلاقة، سميت بالسادية

حتى التي أثبتتها التجربة العلمية "هذه النزعات السادية أو المازوخية ، التي تظهر خاصة في الحياة الإجتماعية للعلم، لا تميز تمييزا كافيا الموقف الحقيقي للعالِم المعتزل ، وهي ليست بعد سوي العقبات الأولي التي يفترض بالعالم ان يتخطاها لكي يكتسب الموضوعيه العلمية الدقيقة " [١] . هذه النزاعات تعيش تطور الفكر العلمي والموضوعية العلمية تتطلب تجاوزها والتخلص من كل ذاتية : " بالنسبة إلي عقل متحرر نفسيا من عبودية الذات والموضوع ، فكل اكتشاف موضوعي هو على الفور تصحيح ذاتي " [٢] .

كما أن التحليل النفسي يكشف عن النزعة البراغماتية المعرقلة لنمو الموضوعية ، فالإنسان لايتعلم ليستفيد عمليا بل يتعلم من أجل أن يتعلم [٣] ، فيقول باشلار في ذلك: "وبعد تحقيق التحليل النفسي للبراغماتية ، اريد أن أعرف لكي أستطيع أن أعرف ، وليس أبدا لكي أستعمل" [٤].

٢. العقلانية المعلَّمة والعقلانية المعلِّمة:

أظهر باشلار اهتماما بالغا بالجانب التربوي للمعرفة العلمية إلى حد اعتبره مقياسا لموضوعية المعرفة ، فيعتبر باشلار العملية التعليمية عملية تواصل بين ذوات المعلِّم والمعلَّم ، عملية قائمة على البرهنة والحجاج وبالتالي فهي شعور متبادل

نسبة إلى الماركيز دي ساد الأديب الفرنسي المشهور والذي تتميز شخصيات رواياته بالاندفاع القهري إلى تحقيق اللذة عن طريق تعذيب الاخرين والسادية تعني الحصول على المتعة من خلال ألم ومعاناة الأخرين سواء كان ذلك نفسيا أو بدنيا أو جنسيا.

(*) المازوخية: تعني الحصول على المتعة عند تلقي التعذيب الجسدي أو النفسي والحاق الأذي بالذات ، و ينسب هذا المصطلح إلى الكاتب الروائي النمساوي ليوبولد فون زاخر مازوخ صاحب الرواية المشهورة (فينوس في الفراء) التي تعبر في بعض أجزائها عن فترات وتجارب منها.

(١) غاستون باشلار : تكوين العقل العلمي ، مصدر سابق ، ص١٩٨.

(٢) المصدر نفسه ، ص١٩٨.

(٣) عثمان عي : بنية المعرفة العلمية ، مرجع سابق ، ص١٥٥.

(٤) غاستون باشلار : تكوين العقل العلمي ، مصدر سابق ، ص١٩٨.

بالمعرفة فيقول : " أعرب ليون برنشفيغ ذات يوم عن دهشته لرؤيتي أولى من الجانب التربوي من الأفاهم العلمية ، كل هذا القدر من الأهمية ، فأجبته بأني ربما كنت أكثر مني أستاذا مني فيلسوفا ، ومن ثم إن أفضل طريقة لقياسة متانة الأفكار تعليمها ، متمشياً بهذا مع المفارقة التي كثيرا ما يسمع عنها في الأوساط الجامعية"[١].

فالعقلانية المعلِّمة تسمح للمعرفة أن تتوسع وتجعل المعلم في الثقافة العلمية في صورة تلميذ دائم : " والإنسان المتفرغ للثقافة العلمية هو تلميذ أبدي ، أما المدرسة فهي النموذج الأعلى للحياة الاجتماعية ، ولا بد من البقاء تلميذا هو النذر الخفي لكل معلم ، بفعل التمايز غير العادي للفكر العلمي ، بفعل التخصص الضروري لا تنفعك الثقافة العلمية تضع العالم الحقيقي في وضع تلميذ" [٢] فبذلك يشارك كل من الأستاذ والتلميذ في العملية التربوية ، حيث بعد أن يقوم الأستاذ بإفهام التلميذ ، يعود التلميذ بإفهام أستاذه بطريقة أفضل حتى يبرهن على أنه قد فهم ، هذه الطريقة التي يسميها باشلار بالعقلانية المعلِّمة.

إن العملية التعليمية عند باشلار لا تنفصل عن الشعور بالمعرفة ، فهي تواصل بين ذوات قائم على الحجة والبرهان ، و يرى أن التعليم التقليدي يهدف إلى نسخ عقول التلاميذ علي شكل عقول الأساتذة ، فإن العادات العقلية تربك التفكير ولذلك وجب تخليص التربية من كل نزعة نفسية ، فالعقل التقليدي يعتمد على قوالب جاهزة معدة سلفًا، فهو لا يمارس التفكير وإنما يعيد إجابات سابقة مبنية على نزعات نفسية و ثوقية فالتعليم الصحيح لا ينشأ إلا إذا اعتمد على تعددية فلسفية [٣] فيقول باشلار : " نعتقد إذا أن الفلسفة التعددية للأفاهيم العلمية هي ضمان لخصوبة التعليم

---

(١) غاستون باشلار : العقلانية التطبيقية ، ترجمة بسام الهاشم ، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص٤٥.

(٢) المصدر السابق : ص٦٢.

(٣) عثمان عي : بنية المعرفة العلمية ، مرجع سابق ، ص١٦٠.

، ونؤثر إعطاء الأفاهيم كل أبعاد الفكر الفلسفي التي يوحي بها بدلا من تعود عزله في فلسفة واحدة لا تمثل إلا وقتا من أوقات العمل العلومياتي الفعلي ، ضمن هذا الشرط فقط ، نستطيع تتبع الإنضاج الفلسفي للأفهوم حتي بلوغه حالة العقلانية الفعالة" [١].

تمتاز الثقافة العلمية المعاصرة بقيمتها المعيارية بالإضافة إلى قيمتها العلمية ، ما يؤثر على تقدم العقل عندما تخضعه لمعايير عامة جديدة ، ولتجاوزها ، يقدم باشلار مقترح علم نفس معياري خاص بالعقل العلمي يجعل من العقل مدرسة والمجتمع مجموعة تلاميذ وتقوم المدرسة بتنظيم هذا المجتمع [٢].

يري باشلار أن العقل يمتاز بطبيعته الجدلية ، وبوظيفته في إثارة الأزمات ، وإذا كانت الأزمة تعطي للعقل وجودا ، فالآخر هو الذي يعطيه فاعلية ، فالعقل يوجه ضد شخص ما والتعليم يوجه ضد الذات ، من هنا تصبح العلاقة بين المعلم والتلميذ علاقة معارضة بناءة في صورة جدلية ، يريد فيها المتعلم أن يكون هو المنتصر ، ولا يتأتى له ذلك إلى من خلال إقناع التلميذ . لأن المعلم أصلا كان تلميذا أنتجه آخرون ، وحين يسعى أن يتعلم باستمرار ، يستطيع ذلك أثناء تعليمه ، شرط أن تتمكن ذاته إلى أن تنقسم إلى معلم وتلميذ [٣].

فوظيفة العقلانية التطبيقية تجعل التلميذ يعيش المشكلة وتسمح للعقل بالتفكير في نوعها والبحث عن حلها ، وهنا يصبح دور المعلم تعليم التلميذ كيفية التفكير الفعال من خلال انخراطه في جدل بينه وبين ذاته وبينه وبين معارفه ، هذا الطابع الجدلي يخدم المعلم والتلميذ على السواء وكثيرا ما يتفوق التلميذ على المعلم لأن العقل هو تلميذ دائم ، يتتلمذ باستمرار : " جدلية المعلم والتلميذ هذه ، قد يشعر بها

([١]) غاستون باشلار : العقلانية التطبيقية ، مصدر سابق ، ص٥٥.

([٢]) عثمان عي : بنية المعرفة العلمية ، مرجع سابق ، ص١٦١.

([٣]) جيل ديديه : باشلار والثقافة العلمية ، مصدر سابق ، ص١١.

فاعلة في تاريخ الثقافة بأسره وليس ثمة مبحث أكثر تواترا من مبحث عالم خلقه الله لتعليم الإنسان" [١].

ومن هنا يصبح هدف التربية تحويل اهتمامات معارف التلميذ أكثر من إصلاحها في صورة جدلية بين عقلين وليس صراعا بين معلم متسلط وتلميذ معارض ، هذا التسلط يعود بأصوله إلى الموؤوث الاجتماعي ، لذا على المعلم أن يقوم بإجراء تحليل نفسي لذاته يصبح على إثره ذات مراقبة وذات مراقبة . فكل ثقافة علمية عليها أن تبدأ بتطهير نفسي ، يتم فيها تعويض المعرفة المغلقة بمعرفة منفتحة تمنح العقل أسباب التطور [٢].

ولذلك ينصح باشلار بمراقبة دائمة للذات حتى يتمكن العقل من الكشف عن الرغبات والانفعالات الخفية ، وقد ركز علماء النفس على أن الدوافع الفطرية والنفسي والاجتماعية ذات أهمية كبيرة في توجه السلوك . تجعل من التربية أداة بناء شخصية متكاملة عن طريق تنمية قدرات التلميذ فالتدريس لا يكون من أجل العلم بل من أجل حل مشاكل المجتمع .

فتتميز المراقبة الفكرية للنفس عن الرقيب النفسي عند فرويد. المراقبة الفكرية للذات مراقبة واعية ومقصودة .الرقيب الفرويدي وظيفته كبت الدوافع الغريزية البدائية الموجودة في اللاشعور ومنعها من الظهور على ساحة الشعور ويتجلى دور الرقيب أثناء التحليل النفسي في صورة مقاومة تمنع من ظهور العمليات النفسية المكبوتة [٣] ، وفرويد أثناء أبحاثه للأمراض العصابية أوضح أن الحياة النفسية تنقسم إلى مراقب و مراقب ، حيث يتخيل المريض انه مراقب من طرف قوى مجهولة تمارس عليه قهرا يشعر المريض بالاضطهاد و الألم وهذا مما أدى إلى القول بوجود جانب في بنية

---

(١) غاستون باشلار : العقلانية التطبيقية ، مصدر سابق ، ص٦٣.

(٢) المصدر السابق : ص١٤٢.

(٣) سيغموند فرويد : الأنا والهو ، مصدر سابق ، ص١٥.

الشخصية هو الأنا الأعلى أو الضمير الأخلاقي الذي ينحصر دوره في التأديب والردع و دفع الشخص للامتثال إلى القيم الأخلاقية والاجتماعية [١].

أما باشلار فيعتبر وظيفة الضمير الأخلاقي تكوينية وتربوية وليست عقابية قمعية فيقول باشلار في ذلك : "ان الضمير يعتبره فرويد بمثابة تحضير للحكم والعقاب ، مما يقوده هذا إلي ذكر الضمير الأخلاقي ، كضمير أخلاقي متصلب ، تأديبي في جوهره ، معزز بقوي إجتماعيه ، ومجمد بفعل الإمتثاليه ، فإننا هنا أمام خلط بين الضمير القاضي والضمير الجلاد ، وهو خلط مميز تماما للتشاؤم الفرويدي ، وقد فات فرويد أن الضمير الأخلاقي العادي هو في الوقت نفسه شعور بالخطأ وشعور بالصفح" [٢].

فالمراقبة الفكرية للنفس تشجع العقل إلى أن يعترف بأخطائه وتدفعه لتصحيحها باستمرار فالقيم الأخلاقية التي تكون وليدة الروح العلمية تعلمنا الصفح عن الآخرين حين يخطئون مثلما نسامح أنفسنا تماما . الأنا الأعلى الفرويدي مرجعيته جماعة بدائية تسيرها دوافع غريزية جنسية ، في حين أن الأنا الأعلى الثقافي عند باشلار ينتسب إلى حاضرة علمية يكونه مجتمع من العلماء. فانقسام الذات في الفكر المعاصر علامة صحة وليست علامة مرض وشذوذ كما هو الحال عند فرويد ، إن العقل المنقسم على ذاته يعيش نوع من الأفراح السادية حيث يكشف أخطاءه.

---

(١) عثمان علي : بنية المعرفة العلمية ، مرجع سابق ، ص١٦٥.

(٢) غاستون باشلار : العقلانية التطبيقية ، مصدر سابق ، ص١٣٥.